الدور المنهجي للعقيدة الإسلامية

أ/ السعيد قاسمي – جامعة باتنة

تمهيد:

تنطلق فلسفة القرآن التربوية، في نظرته إلى الإنسان، من طبيعته المميزة له عن سائر المخلوقات أولا، ومن طبيعة غايته الكبرى التي يندمج فيها مع عناصر الكون كله، والتي تشكل المحصلة الكبرى لنشاطاته كلها، مما يرفعها إلى مستوى أن تكون العلة الغائية لوجوده، بحيث لا يكون ــ بدونها ــ للإنسان أي معنى، مما يعني أن هذه الطبيعة للإنسان هي أساس وجوده، وعليه تتأسس كل قضاياه الوجودية، وعلى رأسها وظيفته الحياتية وغايته الكبرى التي يُفترض فيها ــ منطقيا ــ أن تكون متوافقة مع طبيعته تلك.

وانطلاقا من فلسفة القرآن تلك، وتأسيسا على تلك المنطلقات القرآنية في نظرته للإنسان ستتبين لنا المداخل الأساسية التي نؤسس عليها (محاولة) الكشف عن دور العقيدة الإسلامية في صياغتها للعقل الإيماني وإعادة تشكيله وتنظيم آليات نشاطه، والتي سنجدها مبثوثة في مجموع آيات الأحكام العقدية. وعليه فإن منطلقنا في معالجة موضوع المقال ــ بعد تحديد الإشكالية ــ سيكون من خلال الكشف عن نظرة القرآن إلى الإنسان من حيث طبيعته وغايته الكبرى في الحياة. وحديثنا عن ذلك يلزم عنه بالضرورة التعرض لماهية العقل في القرآن وطبيعته، وذلك باعتباره محلا للخطاب. كما يستصحب ذلك الحديث عن طبيعة العقيدة الإسلامية، باعتبارها مضمونا للخطاب، وكذا طبيعة المحيط المادي (الكون) للإنسان، باعتباره الواقع العملي الذي تنعكس فيه مقتضيات عقيدته. وبذلك تتشكل أمامنا خمسة عناصر: صورة الإشكالية، وأربعة مداخل أساسية لتحليلها.

أولا: ضبط الإشكالية.

لصياغة هذه الإشكالية التي سنثيرها في هذا الموضوع سننطلق من قضية منهجية أثارها المتكلمون في عصر الجدل الكلامي ولم يصلوا فيها إلى حسم. وهذه القضية تتعلق بجدلية العلاقة بين الإيمان والنظر من حيث الترتيب المنهجي للحكم الوجوبي بين الأمرين. وقد اشتهرت في كتب علم الكلام تحت باب: (أول الواجب)؛ هل يتعلق بالإيمان ابتداء أو بالنظر؟. وما سوَّغ إثارة هذا الإشكال هو

النظر إلى علاقة التلازم الوجودي والمنطقي بين القضيتين. فعندما نظر المتكلمون في هذه الصورة من التلازم من زوايا مختلفة تباينت آراؤهم باعتبارين:- باعتبار الوجوب الشرعي.- باعتبار الوجوب المنطقي الأصولي (ما لا يتم الواجب إلا به).

ونحن سنستعير هذه الإشكالية القديمة لنشتق منها إشكالية أخرى تتعلق بالوظيفة التربوية المنهجية للخطاب العقدي في القرآن، وتنبثق هذه الإشكالية من علاقة التلازم بين العقل والقناعة، أو بين التعقل والاقتناع، وهي إشكالية منهجية تتعلق بكيفية الترتيب المنطقي بين الأمرين. لذا فإنه يمكننا أن نصوغ الإشكال على النحو التالي: آلقرآن في خطابه العقدي يستهدف بناءَ العقل أم يستهدف بناءَ القناعة أو العقيدة أو الإيمان؟ بمعنى: أن القرآن في خطابه العقدي أينطلق من بناء المنهج للعقل، أم ينطلق ابتداء من بناء القناعة باعتبار أن العقل ملكة فطرية قبلية ثابتة؟. ويتضح لنا مدى تعقد القضية حينما ندرك مدى التلازم المنطقي بين الأمرين في العقيدة الإسلامية بحيث يصل فيها الارتباط بينهما إلى درجة التلازم بينهما وجودا وعدما.

وبعد ضبطنا للإشكالية نعود لننظر إلى ما قررناه سابقا، وهو الكشف عن نظرة القرآن إلى الإنسان: من حيث طبيعته وحقيقة غايته النهائية. وذلك لتحديد المداخل المنهجية واتخاذها كمقدمات لبناء فرضيةٍ حول الوظيفة المنهجية للعقيدة، والتي نزعم صلاحيتها كنظرية تربوية مستنبطة من القرآن لمعالجة إشكالية المقال؟.

ثانيا: نظرة القرآن إلى الإنسان.

المدخل الأول: طبيعة الإنسان في القرآن.

حينما نتتبع مجموع الآيات القرآنية المتعلقة بالعقيدة في شقها الإنساني[1]. سوف نجد أن القرآن في كل خطاباته العقدية ينطلق من مسلمة أساسية وهي (أن الإنسان كائن عاقل). وصفة العقلانية صفة جوهرية فيه؛ بمعنى أن الإنسان يفقد إنسانيته بمجرد فقدان هذه الصفة. بل إنا نجد القرآن يذهب إلى ما أبعد من ذلك حيث أنه ينتزع من الإنسان حتى صفة البهيمية!؛ وذلك على اعتبار أن البهائم في حياتها الحيوانية تخضع لقوانين إلهية هي في غاية من الانضباط والإحكام، بحيث أنه لا يتأتى لها أن تحيد عنها، ومع ما تبدو عليه ـــ في الظاهر ـــ من الفوضى والقبح والوحشية في نظامها) الغابي (فإن العلم ـــ وقبل ذلك القرآن ـــ يؤكد أنها في

سلوكها الغابي هي في غاية من الانتظام والانسجام مع سنن الله في الكون، وأن أي تشويه في وظائفها البهيمية تلك سيحدث اختلالات خطيرة في النظام البيئي الطبيعي) الإلهي (وهي بتلك الصورة السلوكية) البهيمية (عابدة لله تعالى وفق الغريزة التي جُعلت عليها. ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ (الإسراء:44). أما الإنسان حينما يعطل وظيفته الإنسانية) التعقل (فلن يتأتى له أن ينضبط بتلك القوانين التي تحكم حياة الحيوان في الغابة ليرتقي إلى مستوى) الأنعام (وبالتالي سيبقى هو الأضل!) بل هم أضل). وهذا التوصيف أو الحكم القرآني على الإنسان المعطل لقدراته العقلية لم يورده الله من باب المبالغة في الاستهجان والتوبيخ والتقريع، بل هو توصيف واقعي وحكم موضوعي يعكس الحالة الحقيقية لأولئك الذين يعطلون عقولهم. فسر انتظام الإنسان مع الكائنات في الوجود يكمن في عقله، فإذا فقده ــ بتعطيله ــ خرج عن النسق العام للوجود، فيكون بذلك هو الأضل فيه. نعود الآن إلى بيان كيفية كشف القرآن ــ في خطابه العقدي الموجه للإنسان ــ عن هذه الصفة الجوهرية فيه.

إننا حينما نتتبع القرآن في تركيزه على العقل وهو يتحدث مع الإنسان أو عليه، سنجده يركز على جانبه العقلي إلى درجة يجعل المستمع إليه يعتقد بأنه قد اختزل جوهر الإنسان وحدده في جانبه العقلي. نجد هذا الاختزال والتحديد لطبيعة الإنسان باعتباره كائنا عاقلا في جل الآيات القرآنية المتعلقة بمحور العقائد خاصة، سواء في إثارته لمسألة الخلق، أو في مناقشته لقضايا الكفر والشرك مع عبدة الأصنام والأوثان من مشركي العرب، أو مع منكري البعث أو النبوة، أو في مراجعاته النقدية لعقائد أهل الكتاب، أو في بيانه للعقائد الإيمانية وإرشاد المؤمنين إلى مسالك الاستدلال عليها والرد على الشبهات التي يثيرها الكفار والمشركون. ففي كل ذلك نجد القرآن أحيانا يأمر الإنسان ليأخذ بالأسباب الكفيلة بتنمية العقل وتزكية قدراته، وأحيانا يحاكم الإنسان إلى العقل في حالة التردد والشك، أو يدعوه إلى إعماله وتنشيط أدواته (السمع والبصر) في حالة الإيمان لتعزيزه وتوثيقه. وفي حالات أخرى يستهجن من الكفار والمشركين تعطيلهم للعقل نهائيا، أو إخلالهم لوظيفة من وظائفه. نجد كل ذلك في مثل الآيات الآتية: قال تعالى مبينا دلائل التوحيد في خلق الإنسان: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ**

وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (غافر:67). وقال عن عبدة الأصنام: ﴿**قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾(النبياء:66-67). وقال عن منكري البعث: ﴿**كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (البقرة:73). ويقول في سياق تعليمه نبيه كيفية محاجة المشركين المنكرين لنبوته: ﴿**قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (يونس:16). ويستنكر من أهل الكتاب مخالفتهم لمنطق الفكر وبداهة العقل فيما يعتقدون، ليدفعهم إلى مراجعة معتقداتهم الباطلة، فيقول تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (آل عمران:65). ويبين الله مدى التلازم الوجودي بين الإيمان وصحة استعمال العقل والحواس فيقول تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ (النمل:80-81). ويوجه عناية الإنسان للتثبت من كل ما يذهب إليه من رأي أو ما يتبناه من اعتقاد فيقول تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ (الإسراء:36).

ونحن حينما نتأمل مجموع تلك الآيات السابقة سوف نلحظ أن القرآن يستعمل مادة)العقل(أو بعض أدواته الأساسية)كالسمع والبصر(وفق الصيغ اللغوية التالية:

1- صيغة الترجي:

ويُؤتَى بها لإبراز المقصد من البيان القرآني، على اعتبار أن الانطلاق من مسلمة كون الإنسان كائنا عاقلا يفترض أن يسعى كل خطاب يوجه له إلى تحقيق غاية تربوية أساسية تتعلق بأي سلوك له وهي تمكينه من تعقل الأشياء، وهذا أمر يتسق تماما مع طبيعة وجوهر الإنسان، فكونه كائنا عاقلا ينبغي أن تكون الغاية من مخاطبته هي: تعقل الأشياء، فيأتي التعليل الغائي لكل خطاب بياني بـــ)لعلكم تعقلون(مقصدا وغاية للخطاب.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن تبين أن الغاية الأساسية من التنبيه على مظاهر الكون وظواهر السنن الاجتماعية هي أن يستوعب الإنسان فحوى تلك الآيات ويعقل المراد منها، ويتبين الحكمة من ورائها. ومع أن تلك الآيات في

ظاهرها تتعلق بالمنافع المادية للإنسان، فإن القرآن يركز ــ في سياق التأشير عليها ــ على منفعة أساسية تتعلق بالوظيفة الجوهرية للإنسان وهي)تعقل الأشياء). وتعقلها يتم بإدراك لوازمها العقلية مثل: استلزام السبب العيني للمسبب الغيبي. نجد مثل ذلك في الآيات التالية: قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾)البقرة:73). وقال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (البقرة:242). وقال: ﴿**ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (النعام:151). وقال: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (الزخرف:3). وارتباط أسلوب الترجي في القرآن بخاصية العقل في الإنسان دليل على أن الغاية التربوية من توجيه الخطاب العقدي له هي أن يتحول من كونه عاقلا بالقوة إلى كونه عاقلا بالفعل، وكذلك ينبغي أن يكون، ولذلك خلقه؛ أي ليعقل عنه.

2ــ صيغة الشرط:

وبعد تحديد الصورة المأمولة والمفترضة أن يكون عليها الإنسان، وهي أن يرتفع إلى مستوى إنسانيته ليتعقل الأشياء، تأتي صيغة الشرط لتبرز التلازم الشرطي بين كون الإنسان عاقلا ــ وقد حُدِّدت بصيغة الترجي السابقة ــ وبين فهمه للآيات وإدراكها والاعتبار بها. فهذه الصيغة تبين العلاقة الوظيفية والأساسية بين العقل والآيات ــ أيا كان نوعها ومجالها ومستواها ــ وتؤكد هذه العلاقة وتوثقها إلى درجة أن تجعل الرابط بينهما رابطا شرطيا وجوديا، يثبت وجود العقل في بعده الوظيفي بإدراكه للآيات، وينتفي بانتفاء هذه العلاقة.

وما يعطي لهذه الصيغة وظيفتها المنهجية في تأسيس العقل وربط إنسانية الإنسان بها هو أنها تأتي بأسلوب الإثارة لاستفزاز حسه الإنساني؛لأن في انتفاء العقل ــ بانتفاء وظيفته ــ معرَّة إنسانية مذمومة في العرف البشري. ونجد هذه الصيغة في مثل الآيات الآتية:

قال تعالى في سياق بيان أحكام الولاء والبراء، والتي يفرضها منطق العقل والحذق والنباهة: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (آل عمران:118). وقال تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام في محاورته لفرعون: ﴿**قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (الشعراء:28).

فما نلاحظه حول هذه الصيغة هو أن القرآن قد استخدمها ضمن خطابه

العقدي في اتجاهي الكفر والإيمان؛ ففي اتجاه خط الكفر يستخدم جملة الشرط في سياق الآيات الكونية ليعقل الإنسان حِكَم سنن المنهج الخَلقي، فيُقبل على الإيمان بمقتضى منطق العقل. وفي اتجاه خط الإيمان يستخدم جملة الشرط في سياق الآيات التشريعية ليعقل المؤمن حِكَمَ سنن المنهج التشريعي، فيُقبل على الالتزام بمقتضيات الإيمان. وبهذا يكون الخطاب القرآني موجها للإنسان ــ مؤمنا كان أو كافرا ــ باعتباره عاقلا، ويبقى الفرق بينهما في مضمون الخطاب بما يناسب مقتضى حال كل واحد منهما.

3ــ السؤال الاستنكاري:

صيغة السؤال الاستنكاري تأتي لتفيد التعجب والاستغراب أو التوبيخ أو الاستهجان. وهذا أسلوب يتأسس على الأساليب السابقة ويأتي مرتبا منطقيا بعدها؛ وذلك لأن عدم تحقق الغاية من الترجي وعدم اكتمال الشرط بجوابه يستوجب السؤال الاستنكاري كموقف تربوي يقتضيه الحال، لأنه لا يُتصور أن يكون الإنسان عاقلا ثم لا يدرك آيات الله البينات، فلا يجتمع العقل مع عدم التعقل ولا البصر مع عدم الإبصار ولا السمع مع عدم الاستماع! وإن حدث فهو موقف مضطرب متنافر الأطراف يستدعي الاستهجان والاستغراب (أفلا تعقلون). وهذه الصيغة نجدها في النصوص التالية:

قال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (آل عمران:65). وقال: ﴿**قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (يونس:16). وقال عن قوم إبراهيم على لسان نبيهم عليه السلام: ﴿**أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (الأنبياء:67).

ففي مثل هذه الآيات يكون المخاطبون قد وقعوا في مواقف تصطدم بمنطق العقل وتقلب موازينه[2]، الأمر الذي يثير الاستغراب والشك في إنسانية أصحاب هذه المواقف، لأن الإنسان معتبر بعقله لا بجسمه. وذلك ما سوغ السؤال التعجبي الاستنكاري، لبداهة عقلانية الإنسان.

4 – سلب العقل: وبعد انتفاء المحددات السابقة لإنسانية الإنسان يأتي الحكم الحاسم لإخراج من عطل عقله من دائرة الإنسانية، قال تعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾ (الفرقان:44).

وما يلاحظ في الأسلوب القرآني في حديثه عن هذا النمط من البشر هو أنه يخاطبهم بضمير الغائب، لأنهم في حكم من غاب عقله، فلا يعود مؤهلا للخطاب. وقد تكرر هذا في القرآن الكريم، فقال تعالى في موضع آخر: ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (الأعراف:179).

فالصيغ السابقة ــ إذا ــ هي محددات تحصر وتقصر حقيقة الإنسان في جانبه العقلي، وحيثما ارتفع لازم تلك الصيغ ارتفعت به إنسانيته. لذلك وجدنا القرآن ينفي عنه إنسانيته، حينما تنتفي وظائفه العقلية.

فهذه الحقيقة الأولى التي ننطلق منها وفق المنظور القرآني للإنسان ونحن بصدد بناء التصور الذي تتأسس وفقه وفي إطاره الوظيفة المنهجية للعقيدة الإسلامية. وهذه الحقيقة هي: أن الإنسان في جوهره وفي طبيعته المتميزة كائن عاقل ابتداء. ولما كانت ملكة العقل قد أخذت هذا الحيز من كينونة الإنسان، وتربعت على هذه المكانة ضمن مكوناته، فبأي صورة حدد القرآن طبيعة هذا العقل؟

المدخل الثاني: طبيعة العقل القرآني.

لقد وقفنا في الفقرات السابقة عند حقيقة الإنسان في القرآن، وخلصنا إلى نتيجة مفادها أن المعتبر في تميز جانبه الوجودي عن سائر الكائنات إنما هو العقل. لذا فقد تواتر الفكر الإنساني على تمييزه باعتباره كائنا عاقلا، فتواضع الفلاسفة والعلماء على تحديد هويته بين الكائنات بوصفه حيواناً مفكراً أو ناطقاً.

فالخصيصة التي بها تميز عن سائر المخلوقات هي ملكة العقل، فبها كُرِّم وشُرِّف، وباعتبارها فيه كُلِّف وأُمِر وأُهِّل لحمل الأمانة، في حين أبت السماوات والأرض ــ بحكم طبيعتها لا بحكم اختيارهاــ أن تحمل هذه الأمانة، لافتقارها إلى شروطها (العقل، والتركيبة الثنائية؛ الجسم والروح). والعقل من المفاهيم التي تباينت حوله آراء الفلاسفة والعلماء من حيث ماهيته وطبيعته. فكيف تناول القرآن الكريم العقل؟

إن الحديث عن العقل في القرآن يرتبط وبشكل أساسي بمجموعة من القضايا التي يرتبط بها العقل ــ في المنظور القرآني ــ من جهة علته الغائية. وعند التأمل سندرك أن العقل في القرآن مرتبط من هذه الناحية بالقضايا التالية:

1 ـ طبيعة الإنسان، باعتبارها محلا للخطاب العقدي.

2 ـ طبيعة العقائد الإسلامية، باعتبارها مضمونا للخطاب.

3 ـ طبيعة الكون باعتباره الواقع المادي الذي يعكس المقتضى العملي لعقيدة الإنسان.

فحينما ننظر إلى طبيعة الإنسان سنجدها تتألف من ثلاثة مكونات وجوانب متفاعلة، تشكل بتفاعلها بنية عضوية واحدة هي الذات أو الأنا. وهي في حقيقتها لا تعبر عن كم عددي من العناصر المركبة في ذات واحدة، بل هي جوانب ثلاثة أو مظاهر ثلاثة لذات واحدة، فالتقسيم ـ إذاـ اعتباري وليس واقعياً. وهذه المكونات هي (الجسم والنفس والعقل). وكلها مكونات وظيفية لذات واحدة هي الذات الإنسانية. إذا فالإنسان (على اختلاف مظاهره وتعدد قدراته ووظائف أعضائه، ليس مجموعة من الأجزاء...وإنما هو عبارة عن ذات واحدة...تجتمع فيها صفات العقل مع صفات الوجدان، وقيم الجسم مع قيم الروح، اجتماعا شرع له الدين بأحكامه السديدة)[3]. وباعتبار بعدها الوظيفي العملي فإن لكل مكون من هذه المكونات منطلقات أولية للفعل، هي بمنزلة بذور أولية باطنية لسلوك الإنسان، وهي كما حددها علماء النفس:

1ـ (الغرائز): تمثل الدوافع الفيزيولوجية للمكون الجسمي. 2ـ (الرغبات): وتمثل الدوافع النفسية للمكون النفسي. 3ـ (الدواعي): وتمثل الدوافع الاعتقادية الخارجية للمكون العقلي. ويمكن أن نبرز التكامل الوظيفي بين هذه العناصر في الجدول التالي:

مكونات الإنسان	عناصره	الوظيفة	الثمرة والنتيجة
المكون الجسماني	1 ـ الحواس. 2 ـ الغرائز (دوافع فيزيولوجية).	تجسيد الفعل	تحقيق مقاصد الإنسان وفق ما يرشد إليه العقل وتطمح إليه النفس.
المكون النفساني	1ـ الحس الباطني. 2ـ الدوافع النفسية.	تولد الحركة	
المكون العقلي	1 ـ الذاكرة ـ المخيلةـ المصورة... 2 ـ المبادئ ـ الدواعي.	تنظم وتوجه	

وحينما نأخذ هذه المكونات باعتبار عللها الغائية ـ وهي الدوافع السلوكية ـ

فسنجد أن الإنسان كائن فاعل ومتحرك، وهو وإن اشترك مع بقية الكائنات في هذه الخاصية، فإنه يتميز عنها ويتفرد بالمكون العقلي الذي يجعل من سلوكه سلوكا واعيا. وعقلانية سلوكه شرط وضمان لتوافقه مع سائر الكائنات الأخرى في تناغمها نحو علة غائية واحدة للوجود وهي الخضوع للخالق الواحد المعبود، كل وفق صلاته وتسبيحه. إذا فالمحصلة الطبيعية لمكونات الإنسان باعتبار علتها الغائية تتمثل في السلوك العملي الواعي.

فحينما نعود إلى القرآن سوف تلفت انتباهنا ملحوظة منهجية هامة تتعلق بطبيعة العقل في القرآن؛ فما نلاحظه في استعماله لمادة (عقل) هو أن كل صيغ هذه المادة تأتي بصيغة الفعل ولم تأت قط بصيغة المصدر. والصيغ الواردة في القرآن هي: (تعقلون) تكررت أربعاً وعشرين مرة، و(يعقلون) اثنين وعشرين مرة، و(يعقلها) مرة واحدة و(نعقل) مرة واحدة. واستقرار أسلوبه على هذه الصيغة مؤشر على تصور قرآني خاص ومميز لطبيعة العقل. وتتأكد هذه الملاحظة حينما نعلم بأن القرآن يعكس الواقع الوجودي للمخلوقات كما هي بطبيعتها وحقيقتها، وأنه سيستعمل الألفاظ كمصطلحات في غاية من الدقة الدلالية والإحكام في المعنى.

ما نستنتجه من هذا الشيوع في الاستعمال القرآني لمادة (عقل) هو أن العقل ليس جارحة بها يعقل الإنسان كما هو الشأن بالنسبة للسمع أو البصر التي بها يسمع الإنسان ويبصر. فلما كانت هذه حواس في ذاتها عبر عنها القرآن بصيغة المصدر (السمع) و(البصر). وانطلاقا من الملاحظة السابقة حول استخدام القرآن لمادة (العقل) ذهب احد المفكرين المعاصرين إلى عدم اعتبار العقل حاسة من الحواس، بل هو فعل من أفعال الذات الإنسانية، فحدد مفهومه بصورته العملية. فهو عنده (عبارة عن الفعل الذي يتطلع به صاحبه على وجه من وجوه شيء ما، معتقدا في صدق هذا الفعل ومستندا في هذا التصديق إلى دليل معين)[4].

فبناء على طريقة استعمال القرآن لمادة (عقل). وبالنظر إلى التعليل اللغوي لاشتقاق اسم (العقل) نستنتج أن العقل في القرآن ذو طبيعة عملية يعكس صورته الواقعية. وهذا التحديد لطبيعة العقل القرآني يعكس مدى التناسق التام بين طبيعة العقل وبنية كل مكونات الإنسان من جهة، وبين طبيعة العقائد الإيمانية من جهة ثانية.

فطبيعة العقل القرآني، هي من طبيعة العقائد التي خوطب بها العقل، أو بالأحرى نقول بأن هذه الأخيرة هي من طبيعة العقل، لأن التفكير لا يمكن أن يكون

إلا من جنس الفكر، وإلا اضطربت وظائف العقل. وهو من جهة ثالثة يتسق مع طبيعة الواقع المادي لحياة الإنسان كما حددناها سابقا. وبذلك يتسق العقل مع ذات الإنسان أولا ومع الواقع المادي العملي ثانيا، ومع طبيعة العقائد التي تشكل مضمونه الفكري ثالثا.

فتصوير القرآن للعقل بصورته العملية هو تجسيد لفلسفة الحياة الإيمانية التي تتحدد من خلال مجموع كلٍّ من الأهداف والغايات والمبادئ والتصورات العامة حول الكون والإنسان والحياة. وذلك لأن العقل هو عنصر وظيفي ضمن مركب يتألف من مكونات الإنسان ومن مجموع العقائد ومن طبيعة الحياة. واعتباره كذلك يؤكد أنه لا يمكن للعقل (الإنساني) إلا أن يكون على تلك الطبيعة، وإلا فقد علته الغائية.

إلى هنا نكون قد أثبتنا الطبيعة العملية للعقل كما يصوره القرآن. وبهذه الصورة يستقبل العقل الخطاب التكليفي العقدي ليتصور مضمونه ويصدقه، وليطبق مقتضاه في النهاية.

فالنتيجة الأولى التي نخلص إليها هنا، والمتعلقة بالدور المنهجي للعقيدة الإسلامية في صياغتها للعقلية الإيمانية، هي أن العقل الإيماني عقل فاعل؛ بمعنى أنه ليس مجرد ملكة للتصوير والتذكر والتصديق، بل هو عقل مبدع خلاق لا يقف عند نهاية. وهذا ما يجعله في مستوى طموحات الإنسان الممتدة نحو آفاق مفتوحة، ويجعله أيضا متساوقا مع طبيعة الوجود المتغيرة، فيكون بذلك في حراك مستمر، ينتقل من أفق إلى آخر. ولا يزال العقل الإيماني في هذا الترقي ما بقي الإنسان. وذلك سر من أسرار الحياة الإيمانية التي عاشها الأنبياء والمرسلون، ويقف على أطرافها المتصوفة والعارفون بالله، وتشرئب إليها أعناق المؤمنين. ويترتب على هذا الاستنتاج نتيجة أخرى تتعلق بطبيعة المعرفة العقلية وهي أنها معرفة يتسع مجالها، ويسمو أفقها ويتعمق تحليلها كل حين ما دام العقل في تأملاته الإيمانية للأشياء. وبذلك يكون للعقل في وظيفته الدينية ثمار مادية.

المدخل الثالث: طبيعة العقيدة الإسلامية.

فيما يتعلق بطبيعة العقيدة الإسلامية، فإنه حينما نعود إلى القرآن الكريم فسنجده يقرر أن المعتبر فيما يعتقده الإنسان من عقائد إنما هو الأثر العملي لها، فهي ليست واجبة لذاتها، بل هي واجبة لما يترتب عليها من آثار عملية. ولا معنى

للعقيدة إذا بقيت على مستوى العقل حبيسة القناعات العقيلة والتصورات المجردة.

إن القرآن لا يضع أي قيمة أو وزن للمعرفة ما لم تؤد إلى غاية عملية تعود على الإنسان بالخير، بل القرآن يذهب إلى ما أبعد من ذلك حينما يعتبر المعرفة المجردة من غايتها العملية، معرفة مشينة للإنسان تتدنى به من مستوى الإنسان إلى مرتبة الحيوان وليس أي حيوان، كما وصف بني إسرائيل حينما حُمِّلوا بالتوراة للعمل بها ثم لم يعملوا بها بقوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (الجمعة:5). فالمعرفة وفق المنهج القرآني معرفة وظيفية غائية تنتقل بالإنسان (من معرفة الحواس إلى معرفة العقول، ومن معرفة الروية من غاية إلى غاية حتى لا يرضى (الإنسان) من العلم والعمل إلا بما أداه إلى الثواب الدائم ونجاة من العقاب الدائم)[5]. إن قضية الاعتقاد في المنهج القرآني لا تتمثل في الاقتناع العقلي بقدر ما تتمثل أساسا في التجاوب العملي مع مضمون الخطاب الإلهي. ومن ثم فإن القرآن يتجاوز ـ في خطابه العقدي ـ الأدوات المنطقية البانية للقناعة ـ وذلك مبلغ الفلاسفة والمتكلمين في عصر الجدل ـ إلى الأدوات النفسية الوجدانية التي تعزز تلك القناعة، ولكنها في الأساس تدفع بالإنسان وفق مسالك فطرية إلى تمثل تلك القناعة وتجسيدها في الحياة. وحتى البراهين النظرية لا تتمحص ولا تتقوى إلا عن طريق ملازمة صاحب العقل النظري للعمل بمقتضى ما ينظر فيه، كما تمحِّص التجربة الفروض العلمية، لأن (البرهان النظري في مجال الألوهية لا يقترب من الحق إلا إذا انبنى على مقولات عملية مثل (الطاعة) و(طلب المغفرة) و(التوبة)... وإن العقلانية المبنية على مثل هذا العمل تكون أغنى وأعمق وأصوب من العقلانية النظرية المنفصلة عن العمل)[6]. فالمعتقِد العامل (كلما تزايد عمله تماسك نظره، واتسق استدلاله، واستقامت مناهجه)[7]. لأن العقل (بفضل التلقيح بالعمل يصير قادرا على الإطلاع على مدركات كانت تعد لديه من قبل من باب المغيبات)[8]. فهذه هي الطبيعة العملية للعقيدة الإسلامية في صورتها القرآنية، ولا أدل على هذا الاندماج والتماهي بين المعتقد ومقتضاه العملي في التصور العقدي الإسلامي من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا**﴾ (النساء:136). إنه يعبر عن المقتضى العملي للإيمان بصيغته العقدية (الإيمان) فتكون بذلك العقيدة سلوك في بعدها العملي، ويكون السلوك عقيدة في أصله الإيماني.

المدخل الرابع: طبيعة الكون.

فيما يتعلق بطبيعة الكون باعتباره الواقع المادي الذي تنعكس عليه العقيدة في بعدها العملي. فإن القرآن الكريم يؤكد بأن الكون يخضع لسنة التغير والحركة، وهذا ما تؤشر عليه الآيات القرآنية المتعلقة بصفات الأفعال لله تعالى. فقد صور القرآن الكريم صفات الأفعال بصيغ تفيد استمرار الفعل الإلهي في الكون وذلك مظهر من مظاهر قيومية الله على الكون، نجد ذلك في مثل الآيات التالية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ (فاطر:41). وقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ**﴾ (الروم:25). وقال: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ (البقرة:255). وقال: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ (الرحمن:29). وكأثر لمقتضى هذه السنة في الكون والحياة، جاءت أحكام المنهج التشريعي قابلة للتغير بتغير الأحوال. فالكون وفق التصور القرآني لا يتسم بالسكون والثبات، بل هو كون متحرك متغير وفق نظام إلهي. وباعتبار أن العقيدة الصحيحة تجعل معتنقيها في تناغم وتساوق مع حركة الكون فإن الإيمان الصحيح والحي ينبغي أن يتسم بالحركة والتغير. إذا فطبيعة القضايا الثلاثة السابقة (الإنسان والعقائد والكون) تتوافق جميعها في البعد العملي.

ثالثا: تحليل الإشكالية.

بعد تحليلنا لطبيعة العقل في القرآن الكريم، وشكل صياغته له. ننظر إلى الدور المنهجي للعقيدة عند عرض القرآن لها على العقل، وذلك للكشف عن دور العقيدة في أثرها التنظيمي والمنهجي على العقل وصياغته وتنظيم نشاطه الفكري. لذا فإن الإشكالية التي نعالجها في الفقرة التالية نصوغها في السؤال التالي:

ألقرآن في خطابه العقدي الموجه للإنسان يكتفي بعرض العقيدة على العقل على شكل أحكام شرعية مطلوب من العقل قبولها والتصديق بها؟ أم أنه يستهدف بناء العقل ومنهجه وتنظيم نشاطه؟ وذلك على اعتبار أن العقل ملكة لإنسان واقعي تعتريه ظروف واقعية قد تتلبس به أفكار مضطربة فتشوش نشاطه وتفسد مسالكه، والتفكير دائما يكون من جنس الفكر كما ذكرنا سابقا، ومن ثم يتأقلم العقل مع طبيعة الفكرة التي يستوعبها، فكما أن العقل قد ينتظم الأفكار ويشكلها ويرتبها وفق منطقه الخاص ـــ وهو الأصل في عمل العقل السليم ـــ فإن الأفكار القوية في حالات معينة قد تسيطر على العقل وتنمِّطه وفق طبيعتها، فتنعكس بذلك خصائص الفكرة

على صفات العقل الحامل لها. فالعلاقة بين الفكر والتفكير علاقة جدلية كل واحد يؤثر في الآخر. ولحل هذه الإشكالية نعود إلى القرآن لمعرفة كيفية توجيهه للخطاب العقدي.

فحينما نستقرئ مجموع الآيات المتعلقة بالأحكام العقدية خاصة في جانبها الاستدلالي سوف نجد أنها قد استوعبت كل العناصر المنهجية المتعلقة بترسيم الوظيفة العلمية والعملية للعقل. وعند تحليلنا لها سوف نكتشف أن كل طائفة منها تؤشر على وظيفة من الوظائف المنهجية للعقل وهذه الوظائف يمكن ضبطها في العناصر التالية: 1 ـ تأسيس العقل. 2 ـ تحديد الإطار الموضوعي لعمل العقل. 3 ـ تحديد الإطار المنهجي لعمل العقل. 4 ـ تفعيل القدرات العقلية وتنميتها. 5ـ تدريب العقل وترويضه على التفكير المنهجي السليم.؟

وما يعطي لهذه الوظائف دورها التربوي في منهجة العقل وتنظيم مسالك تفكيره هو أنها وظائف ترتبط مباشرة بالفعل العقدي على مستوى الاعتقاد وفي سياق تمثل الأحكام العقدية في حياة المؤمن، الأمر الذي يعطي للمنهج ـ كنظام للعقل ـ قيمته العقدية الإيمانية. وبذلك يكون الالتزام بالمنهج في أي بحث من الأبحاث هو شكل من أشكال السلوك الإيماني، وكذلك ينبغي أن يكون، وإلا فقد العقل علته الغائية كما قرر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ (الأعراف:179). فيفقد بذلك الإنسان إنسانيته ﴿**أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ (الأعراف:179). لنتتبع الآن هذه الوظائف من خلال الآيات المحددة لها.

أولا . تأسيس العقل: والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو بماذا يؤسس القرآن العقل وكيف يؤسسه؟

حينما نستقرئ مجموع الآيات العقدية سوف نجد أن القرآن يؤسس العقل من خلال تحديد المبادئ الأولية التي يستند عليها العقل في أي نشاط فكري له وهذه المبادئ حسب استقرائنا للقرآن هي: مبدأ الهوية. مبدأ عدم التناقض. مبدأ السببية. مبدأ الغائية. كما يحدد له الأدوات التي بها يتصل بالعالم الخارجي، ويتفاعل مع وجدانه الباطني، وهذه الأدوات تتمثل في مجموع الحواس. وهي السمع والبصر أساسا، بالإضافة إلى الحس الباطني. وهذه الحواس هي بمثابة المصادر الأولية له. وتبدو لنا منهجية القرآن في كيفية تأسيسه للعقل من خلال ما يلي:

1 ـ تحديد المصادر المعرفية المكتسبة: فقد حدد القرآن الكريم ثلاث مصادر أساسية للمعرفة العقلية وهي: السمع والبصر والعقل؛ فوظيفة كل من السمع والبصر تتمثل في نقل المعلومات عن العالم على شكل معطيات حسية أولية تفيد العقل في (تصوره) للأشياء. أما دور العقل فلا يقف عند حد التصور ـ وهذه حالة الكفار حيث يقفون عند هذا الحد ـ فتلك وظيفة أولية لا طائل من ورائها ما لم يقم العقل بوظائف ذهنية أخرى، كالتحليل والتركيب والمقابلة والمقارنة والنقد، إلى غير ذلك من وظائف الذهن المعقدة، لتحديد العلاقة بين الأشياء، نفيا وإثباتا، وتحديد المواقف العملية المقتضية لتلك النتائج التي يتوصل إليها.

فبقدر ما يكثف العقل من عملياته الذهنية في تعامله مع معطيات السمع والبصر وبقية الحواس بقدر ما يتعمق في نظرته للأشياء، ويصدق في استنتاجاته، لذلك عبر الله عنه في القرآن بـ (اللب) و(الفؤاد) و(القلب). قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (النحل:78). فباعتبار أن الإنسان يولد خاليا من المعرفة حدد الله له منهجا لاكتساب المعرفة من خلال ما ذكر سابقا. ولكن كيف يعمل العقل في تحليله للمعطيات الحسية؟ كيف يهتدي إلى الحكم والاستنتاج الصحيح؟

ثانيا. تأطير مبادئ العقل:

هنا نجد القرآن يحيل العقل إلى ما فطر عليه الإنسان. فقد ذكرنا من قبل أن العقل يستند في نشاطه ووظيفته إلى مبادئ أولية فطرية. فكيف يوظف القرآن هذه المبادئ؟ حينما نتتبع بعض الاستدلالات القرآنية نجد أن القرآن يحاكم عقول الناس إلى هذه المبادئ دون أن يقيم الدليل عليها. وذلك من منطلق أنها مبادئ فطرية لا ينكرها أي عاقل. لذلك فإن الاستدلالات المبنية على مبادئ العقل مباشرة تعد من أقوى الأدلة وأكثرها تأثيرا في النفوس، لبساطة تركيبها وسهولة استيعابها على العقل، لقرب المسافة بين المقدمة والنتيجة.

والقرآن يصُوغ مثل هذه الأدلة بطريقة عجيبة تخالف كل صور الاستدلال المعروفة في علم المنطق، مما جعل الفلاسفة وعلماء الكلام يحتارون في تصنيف استدلالات القرآن ضمن صور معينة للاستدلال، تماما كما تحيَّر العرب في تصنيف أسلوب القرآن من الناحية البيانية ضمن فنونهم المعروفة، كالشعر والنثر والسجع. فكما هو معجز في أساليبه اللغوية، فهو كذلك معجز في مناهجه الاستدلالية، إنه

يستند في استدلالاته إلى نفس مبادئ العقل التي يستند إليها كل المناطقة، كما يستند في صياغة أساليب بيانه وبلاغته إلى نفس الجمل والحروف التي يعتمدها بلغاء العرب وشعراؤهم في صياغة بيانهم، ومع ذلك يأتي بناء الأدلة ــ كما يأتي بناء نصه اللغوي ــ مخالفاً لكل أشكال الاستدلال التي عُرفت. فمثلا لو أخذنا قوله تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ**﴾ (الطور:35–36). فقد ننشرها على شكل (دليل السببية)، وقد نحللها على شكل استدلال (بطريقة البواقي) بنقض الفروض الفاسدة أو على شكل(بطلان الدور). إلى غير ذلك من الأشكال المنطقية المحتملة.وكل تلك الأشكال تأتي مركبة الصيغة معقدة المعنى مبهمة المفهوم عسيرة الاستيعاب، أما الاستدلالات القرآنية فتأتي في عبارات بسيطة التركيب، قصيرة الصياغة، واضحة في مفهومها سهلة الاستيعاب. وفي ما يلي نسوق بعض الآيات المتضمنة في استدلالاتها العقلية بعض مبادئ العقل:

1 ــ **مبدأ البداهة:** نجده في مثل قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ**﴾ (إبراهيم:10). ففي قوله تعالى: (أفي الله شك) استفهام استنكاري يفيد التعجب، ولا يقع التعجب من إنسان شَكَّ في شيء يحتاج فيه العقل إلى دليل، وإنما يكون للتعجب مسوِّغا حينما يشك فيما لا يحتاج فيه العقل إلى دليل وهو البداهة. ونلاحظ العلاقة العكسية بين مطلع الآية وخاتمها؛ فمبدؤها يتضمن إثبات الرسل بداهة الإيمان بالله، وخاتمتها تضمنت طلب الكفار للحجة البيِّنة على وجود الله! فما بين البداهة والحجة المُبينَة تنافر عقلي؛ إذ لا مكان للبداهة حيث يتطلب الدليل، ولا مسوِّغ للدليل حيث يكون الأمر بديهيا. والجمع بين الأمرين ينم عن بلادة العقل في ظل الكفر.

2ــ **مبدأ السببية:** نجد توظيفه في قوله تعالى: ﴿﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ (الطور:35). فالآية تنطلق من وجودهم الثابت بالحِسّين؛ الباطني (الشعور) والخارجي (الحواس) وتحاكمهم إلى مبدأ السببية وتساؤلهم: إن (وجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا)[9]. فبطلان الاحتمال الأول يستند إلى مبدأ السببية الذي لا يحتاج فيه الإنسان إلى ذكره، لأنه معلوم

بالفطرة والضرورة، لذلك لم يجبهم الله عن ذلك التساؤل، لأنه يستند إلى مبدأ معلوم بالضرورة والفطرة. وقد بنى الفلاسفة والمتكلمون كثيرا من الأدلة على وجود الله على هذا المبدأ، ومن هذه الأدلة: دليل السببية، ودليل الاختراع، ودليل العناية، ودليل الإمكان، ودليل الانتظام، وغيرها من الأدلة. فجل الأدلة سواء كانت عقلية أو كونية هي تستند إلى هذا المبدأ. إلا أن القرآن يصوغه في عبارات سهلة ميسورة على الأفهام قصيرة العبارات واضحة المعانى كما لاحظنا في الآية السابقة وفي هذا المعنى يقول ابن رشد: (من تأمل أجناس الأدلة المنبهة في الكتاب العزيز على معرفة وجود الصانع وجدها جمعت وصفين: أحدهما كونها يقينية والثاني كونها بسيطة غير مركبة؛ أعني قليلة المقدمات فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأُوَل)[10].

3ــ **مبدأ العلة الغائية:** وهذا المبدأ نلمحه في جل آيات القرآن المتعلقة بتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية بشكل خاص. فحديث القرآن عن الخلق ومفردات الكون ينصب على إبراز هذا المبدأ. وقد استنبط الفيلسوف ابن رشد من مجموع الآيات المتضمنة لهذا الموضوع ــ وهي كثيرة ــ دليلا سماه (دليل العناية). فقال في كشفه عن هذا الدليل القرآني: (.فالطريق التي سلك الشرع بالناس في تقرير هذا الأصل هي من الطرق البسيطة المعترف بها عند الجميع، وذلك أنه إذا تؤملت تلك الآيات التي تضمنت هذا المعنى وجدت تلك الطريق هي طريق العناية، وهي إحدى الطرق الدالة على وجود الخالق تعالى، ومبناه على أصلين معترف بهما عند الجميع، أحدهما: أن العالم بجميع أجزائه وُجد موافقا لوجود الإنسان ولوجود جميع الموجودات التي هاهنا. والأصل الثاني: أن كل ما يوجد موافقا في جميع أجزائه لفعل واحد ومسددا نحو غاية واحدة، فهو مصنوع ضرورة، فينتج عن هذين الأصلين بالطبع أن العالم مصنوع وأن له صانعا)[11].

4ــ **مبدأ عدم التناقض:** وقد استندت إليه الآية في بناء الدليل العقلي على وحدانية الله تعالى في قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (الأنبياء:22). يقول الرازي في تفسيره للآية: (القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال... لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد أو تسكينه. فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه،

فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو المحال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر، فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك، وبالعكس، فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال)[12].
فبمثل هذه الآيات السابقة يوظف القرآن مبادئ العقل كمبادئ أساسية ينضبط بها العقل في كل عملياته؛ يقبل حين يقبل، ويرفض حين يرفض، أو ينفي أو يثبت، أو يحكم أو يستدل، يفعل كل ذلك في إطار هذه المبادئ.

وبإقرار القرآن لهذه المبادئ وتفعيلها من خلال مخاطبة العقل في إطارها، يكون القرآن قد وضع العقل في مسلكه الطبيعي والصحيح، فحيثما خرج عنها العقل في عملياته ضل عن الحقيقة، سواء في معرفته لعالم الشهادة، أو في معرفته لقضايا عالم الغيب، وذلك لأن هذه المبادئ هيأ الله بها الإنسان ليتمكن من فهم هذه العوالم، فهي القوالب التي تتشكل بها المعرفة أيا كانت: سواء ما يتعلق بمعرفة مضامين الوحي، أو مظاهر الكون، فكلا منهما مصمم وفق هذه المبادئ، مما يجعل العقل في تناسب منطقي في بنيته مع بنية مضامين الوحي وبنية الكون، لأن الذي كلم عباده بالقرآن هو الذي جعل السمع والأبصار والأفئدة للإنسان، وجعل الليل والنهار والشمس والقمر والسموات والأرض...لذلك فإن (العقل لما يباشر النص الديني لاستجلاء معانيه، فإنه سيعتمد المبادئ المنطقية العامة للفكر التي ينبني عليها النص الديني نفسه، وهي القاسم المشترك بين الخطاب الديني وبين المخاطب بالتكليف)[13].
وبين الكون أيضا لأنه مبني في تصميم خِلقته على مبادئ العقل أيضا.

ثالثا. تحديد الإطار الموضوعي للعقل:

ينطلق الإنسان في تناوله لقضايا الفكر وشؤون حياته مسترشدا بما تقدمه إليه الحواس، ويهتدي إليه العقل فيتعرف على كل ما حوله من مظاهر الوجود، فتبقى دائرة معرفته محصورة في عالم الوجود المتعين بالحواس، في حين تبقى أشواقه المطلقة وما يتشوف إليه العقل مما وراء هذا العالم المشهود ــ وتلك معطيات حقيقية لا يمكن تجاهلها ــ مبهمة، مما يجعل الإنسان في حالة توتر وقلق نحوها، لأنه يجد أثرها في نفسه وفي بعض ما تؤشر عليه ظواهر عالم الشهادة. فتكون حالته كحالة أعمى شعر بحواسه بأن شيئا أو أشياء تحوم من حوله لكن دون أن يحدد هويتها ومكانها وقيمتها وطبيعتها. هذا ما يحدث للإنسان صاحب العقل المجرد. أما القرآن فإنه ينطلق في تناوله لحقائق العقيدة وقضايا الإنسان من إقرار

أفقين للوجود، محددا طبيعة كل منهما وعلاقته بالآخر. فيثبت بأن الوجود يشتمل على زوج من العوالم؛ عالم يتوافق فيه مع العقل، وهو عالم الشهادة، وعالم يكشف فيه للعقل عما كان مبهما، ويُطَمئن فيه النفس عما كانت تتشوف إليه، وهو عالم الغيب.

وهنا يبرز التكامل المعرفي والوظيفي بين العقل والوحي؛ فالأول ــ بحكم ما تقدمه الحواس ويؤشر عليه العقل ــ يقر بالوجود الحسي و(يصفه)، كما يستبطن الوجود الغيبي بأشواقه وحدسه، ويؤشر عليه بتأملاته فيما يدركه من المعطيات الحسية. والثاني يؤكد ويثمن على العقل إقراره بالوجود الحسي و(يفسره) له، كما يكشف عن العالم الغيبي ويصفه له، فينقله في الذهن من الافتراض والحدس إلى الإثبات واليقين. وبذلك فإن الوحي لا يأتي كعنصر إضافي من باب اللطف الإلهي ليسند العقل ــ كما يعتقد المعتزلةــ، بل يأتي كضرورة منهجية تقتضيها طبيعة كل من العقل والوجود بشقيه.

مما سبق نستنتج ما يلي:1ــ أن الوجود لا ينحصر في عالم الشهادة، بل ولا يمكن فهم هذا الأخير إلا بإقرار وجود عالم الغيب. 2 ــ بناء على الطبيعة الثنائية للوجود (مشهود وغيبي) فإنه لا يمكن للعقل أداء وظيفته في عالم الشهادة، ومن باب أولى في عالم الغيب ما لم يرتبط في ذلك بالوحي، باعتباره مصدرا غيبيا ومطلقا على نحو عالم الغيب، لأنه غيبي ومطلق أيضا. فثنائية العقل والوحي في مقابل ثنائية عالمي الشهادة والغيب يجعل المنهج القرآني في تناسب مطلق مع طبيعة موضوعه (عالم الشهادة وعالم الغيب). 3 ــ للعقل في كل عالم من العالَميْن مسلك مناسب، فباعتبار ما يملكه العقل من معطيات حسية حول عالم الشهادة فإن المنهج الأنسب له في ذلك هو الاستقراء. أما عالم الغيب فباعتبار انعدام تلك المعطيات المباشرة مع توفر النص الخبري (الوحي) فإن المنهج الأنسب له في ذلك هو الاستنباط؛ فالأول استدلال صاعد، والثاني استدلال نازل، فيأتي منهج العقل في ذلك منهجاً ثنائياً تفاعلياً على نحو ثنائية الوجود بين الغيب والشهادة. وهكذا ينبغي أن يكون المنهج حاملا لخصائص موضوعه.

رابعا. تحديد الإطار المنهجي للعقل:

بعد أن أرسى القرآن أسس العقل على مبادئ أولية متينة، وحدد له روافده المعرفية وضبط الإطار الموضوعي له، نجد أن القرآن وضع أمام العقل مجموعة

من الضوابط المنهجية المسددة له. وحينما نعود إلى القرآن سوف نجد أن هذه الضوابط تتمثل فيما يلي:

1 ـــ النهي عن التفكير في ذات الله سبحانه. قال تعالى واصفا الكفار الذين تجاوزوا هذا الحد: ﴿**وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** (الرعد:13). وقد نزلت في يهوديٍّ كان يجادل الرسول ﷺ في ذات الله: من أي شيء هو؟![14]. وقال تعالى أيضا ردا على قريش حينما سألوا الرسولﷺ أن يريهم الله جهرة: ﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ**﴾ (البقرة:108).

2 ـــ إحالة معرفة حقيقة الروح إلى علم الله المطلق قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ (الإسراء:85). فبين الله هنا أن حقيقتها (من الأمر الذي يعلمه الله عز وجل دونكم)[15].

3 ـــ نفي إمكانية معرفة العقل موعد قيام الساعة. قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ**﴾ (الأعراف:187). فهي من شؤون الغيب التي لا يعلمها إلا الله.

4 ـــ عدم تبني أي عقيدة أو رأي إلا عن دليل وعلم. فقال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ (الإسراء:36).

فالقرآن من خلال مجموع النواهي السابقة يضع ضوابط محددة للعقل تشكل بمجموعها محددات منهجية لطبيعة المجال الذي يقع تحت سلطان العقل. إذا فهذه الضوابط المنهجية لا يمكن اعتبارها مقيدة للعقل، بل هي مسددة له لتفعيل نشاطه ومنع توظيفه في غير مجاله الطبيعي وإعفائه مما ليس من اختصاصه أو فوق طاقته. فهذه الضوابط وضعت لحماية العقل وتحريره من الجهل الذي سيرد عليه بسبب عدم الاختصاص الطبيعي.

وفي هذا السياق نفهم سبب نهي الرسول ﷺ صحابته عن الخوض في القدر (فما يمكن أن يعنيه هذا الردع في صدر الإسلام هو الاعتراض على سوء استعمال العقل؛ إما من حيث منطق الجدل، وإما من حيث حدود البحث)[16]. لذا فإن كمال العقل يتحقق عند إدراكه عجزه عن إدراك الغيب لما في ذلك من معرفة حدوده

ووعيه بطبيعة الغيب.وفي هذا السياق نفهم مقولة: (العجز عن الإدراك إدراك.)

من هنا يمكن اعتبار النواهي السابقة بمنزلة شروط موضوعية لضمان سداد العقل في عمله. لذا فإن الأنسب للعقل المنضبط بالضوابط الشرعية أن ينعت بـــ (العقل المسدد) بدل (المقيد) (احترازا من الدلالة السلبية، بل الدلالة المذمومة التي طرأت على استعمال لفظ (المقيد) والتي تفيد محدودية دالة على ضيق الأفق والتبعية المانعة من الانطلاقة والانفتاح على البحث. بينما التبعية للشرع هي أقوم وأفيد للعقل من استقلاله عنه)[17]. وذلك لأن (العقول لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي)[18]. من هنا يأتي الوحي لا كمرشد للعقل فحسب، بل كضرورة منهجية ملحة، ودونه تنحصر دائرة مدارك العقل وتضيق، وإذا ما حاول العقل الانفلات من تلك الضوابط ضل طريقه، فتضيق بذلك مداركه. فكلما انضبط بالوحي اتسعت دائرة معارفه، وكلما استقل عنه ضاقت.

خامسا. تفعيل القدرات العقلية وتنميتها:

المعلوم عند علماء النفس أن العقل البشري في ذاته يتضمن مجموعة من القدرات الذهنية الكامنة، وهي لا تنتقل إلى الوجود بالفعل إلا بعد تفعيلها بالممارسة، وهي قابلة للنماء إذا خضعت لأساليب تربوية ترويضية مناسبة. وإذا لم تُفعَّل بقيت كامنة ضامرة لا تؤدي وظيفتها. لننظر الآن كيف فعَّل القرآن هذه القدرات.

أ ــ **التفعيل:** لقد وظف القرآن مادة العقل ومشتقاتها توظيفا متميزا، وذلك من حيث كثافة الاستعمال الأمر الذي يعطي للعقل دورا رياديا ومحوريا في الخطاب القرآني، وكذلك من حيث التنويع في الوظائف الذهنية، ويبدو لنا ذلك كله من خلال ملحوظتين:

1ـــ الملحوظة الأولى تتعلق بصيغة الاشتقاق، فالقرآن لم يستعمل مادة (ع ق ل) كمصدر على الإطلاق، وإنما جاءت بصيغة الفعل (تعقلون)، (يعقلون)، (يعقلها)، (نعقل). فكلها جاءت بصيغة الفعل مما يعطي للعقل دورا حيويا في العقيدة، بحيث يبقى العمل العقلي في هذا الميدان مفتوحا ليترقى بفضله الإنسان المؤمن في مدارج الإيمان. وصيغة الفعل تدل على أن دوره دورٌ إيجابيٌ فاعلٌ يقتحم المجاهيل بالأسئلة والبحث والنظر وقد فاقت استعمالات القرآن لهذه الصيغة أكثر من أربعين مرة. فهذه الكثافة في الاستعمال تؤكد إلى أي مدى تتوافق العقيدة الإسلامية مع العقل في حدود الطاقة البشرية.

2 ـــ الملحوظة الثانية تتعلق بمرادفات العقل وهي: الفكر،والذكر، والنظر، والقلب، والفؤاد، والنهى، والحجر. مضاف إليها مفردات أخرى تتعلق بوسائل العقل وهي السمع والبصر. فقد دعا القرآن إلى استعمال العقل بهذه المفردات، بما يعني أن القرآن يدفع بالعقل إلى أن يستنفر كل قدراته ليهتدي إلى حقائق الإيمان.

فمجموع حواس الإنسان تشكل في المنهج القرآني منظومة فكرية مع العقل، بها يحلل ويركب ويقارن ويقارب ويستنتج أو يستنبط، ويفسر ويعلل، ويقوِّم ويقيِّم، ويتذكر، ويتخيل.

فعقيدة هذا شأنها مع العقل كفيلة بأن تسمو به وتنمي قدراته وتذكيها، فباتخاذها للعمليات العقلية وسيلة دائمة ومستمرة لتوثيق الإيمان، ودفع الشبهات والشكوك، تجعل العقل المؤمن في نماء مستمر، واكتشاف دائم للحقائق، الأمر الذي يعطي للعقيدة الإسلامية الدور الأساسي في الحركة العلمية والنهضة الحضارية.

ب ـــ تنمية القدرات العقلية.

بتتبعنا لموارد المصطلحات القرآنية السابقة في سياق الآيات القرآنية نجد أن القرآن يوظفها بمستويات متباينة؛ فمثلا وظيفة (التفقه) العقلية يستعملها القرآن الكريم في معان تتدرج من مستوى فهم الكلام إلى مستوى اكتشاف كيفية تسبيح الكائنات التي لم يبلغها بعد علم البشر!. وفيما يلي بيان لهذا التدرج التصاعدي في مستويات دلالة عبارة (الفقه) في القرآن الكريم:

1 ـــ المستوى الأول: فهم الكلام وإدراك معناه، كما في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ (هود:91). و(الفقه اسم لعلم مخصوص وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه)[19]. وقال أيضا على لسان موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾ (طه:25-28).

2ـــ المستوى الثاني: فهم أحكام الشرع وحِكمه وفق أدلتها، ومعرفة مقاصدها وأسرارها. ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ (التوبة:122). أي (ليتكلفوا الفقاهة فيه، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها)[20].

3ـ المستوى الثالث: فهم الظواهر الكونية واكتشاف قوانينها ووعي دلالاتها الدالة على عظمة القدرة الإلهية، وحسن تدبير الخالق. ففي سياق ذكر دلائل القدرة الإلهية في الآفاق وفي الأنفس وبيان مظاهر العناية الإلهية، يقول تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾ (الأنعام:98). فهذه الآية حملت في مضامينها ـ لسمو معناها ـ من المعاني ما جعل المفسرين غير مستقرين على معنى لها في قوله تعالى: (فمستقر ومستودع) لأن العبارتين وردتا مطلقتين، لذلك ترك الطبري معناها مفتوحا على كل الاحتمالات. فالانتقال بالعقل في توظيف مصطلح (الفقه) من مستوى بسيط إلى مستوى مركب ومعقد كفيل بأن يعمل على ترويض قدرات العقل وتنميتها.

وما يعطي لمصطلح (الفقه) في النص القرآني عمقه وامتداده في الآفاق والأعماق أن جعل الله معرفة كيفية تسبيح الكائنات غير العاقلة لله فقها. قال تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ (الإسراء:44). وهذه المعرفة لا تزال إلى اليوم ـ رغم التطور العلمي ـ في حكم الغيب النسبي، ويحاول العلماء اليوم معرفة لغات الكائنات.

ومن أساليب القرآن التربوية في تنمية القدرات العقلية جمعه في الآيات الكونية بين النظرة الكلية للظواهر الكونية والنظرة الجزئية، فذلك يساعد العقل على تنمية مهارة التحليل والتركيب؛ فهو يدرب على النظرة الكلية إلى الأشياء لإدراك الترابط الموجود بين كلياتها، مثل قوله تعالى: ﴿**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (يونس:101). ثم يأمر بالنظر في المخلوقات من حيث دلالتها على الخالق بشيء من التفصيل. فيقول تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ (الغاشية:17–20). فالمفردات الكونية الواردة في هذه الآية تشكل (ما صدق) الآية السابقة لها، إذ أن من بين ما في السماوات وما في الأرض هو ما ذكر في الآية الثانية.

وفي مستوى ثالث من التفصيل نجده يأخذ عنصرا من (ما صدق) الآية الأخيرة وهو (الجبال) ويجعلها ظاهرة في حد ذاتها تستدعي التحليل لفهم قوانين تركيبها كآية من الآيات الدالة على قدرة الله وعظمته، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ**

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر:27). ومع تناوله لظاهرة الجبال إلا أنه لم يفصلها عن النسق الكوني كله[21]، إذ ذكر معها ظاهرة الأمطار، وهي مرتبطة ببعض الوظائف المناخية والعضوية للجبال.

وفي مستوى رابع من التفصيل يتناول القرآن – في منهجه التحليلي – مختلف وظائف الجبال الطبيعية ومنافعها للإنسان. نجد ذلك في الآية التالية. قال تعالى عن الجبال مبينا بعض منافعها: ﴿**تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا**﴾ (الأعراف:74). وقال: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا**﴾ (النحل:68). وقال: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا**﴾ (النحل:81). وقال: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ (النبأ:6–7). والآلية التي يعتمدها القرآن هنا هي: الإجمال والبيان، فغالبا ما يأتي بقضية في صورة من الإجمال ثم يأتي بعد ذلك – مباشرة أو بعد مدة تطول أو تقصر بحسب مقتضى الحال – بالبيان بواسطة آليات معينة (كالتفريق والتفريع والتفصيل والتفكيك وبالتالي التحليل)[22]. فهو يأتي بشيء مجمل ثم يحلله إلى عناصره، ويقوم بالعكس حينما يوجه العقل إلى مفردات الكون بصورة الاستقراء الجزئي أو شبه الكلي (السماء والأرض)، ثم يترك العقل يستنتج، مثل قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ (الغاشية:17–20). ويقف عند هذه الآية ليترك العقل – بعد أن أرشده إلى صورة من منهج التفكير الصحيح – يستنتج. وبهذا الأسلوب يروض القرآن العقل على مختلف العمليات العقلية؛ صعودا ونزولا بين الجزء والكل، فهذه وظيفة من وظائف بيان المجمل.

إن هذا التباين بين الآيات في التفصيل والإجمال كفيل بترويض العقل وتدريبه على آلية التحليل والتركيب، وهما آليتان ضروريتان متلازمتان ينتهجهما العقل في نظرته إلى مفردات الكون؛ فهما ضروريتان لأن النظرة الكلية التركيبية في غياب التحليل يُبقي معرفة الإنسان للظاهرة معرفة سطحية ومبهمة وغير دقيقة. كما أن طريقة التحليل في معزل عن التركيب يجعل معرفة الموضوع مشتتة وضيِّقة الأفق، لعدم إدراك العقل لعلاقات التأثير والتأثر والارتباطات الوظيفية بين عناصر الظاهرة المحللة. لذا فهما ضروريتان للنظر العقلي في أي قضية حتى في

مجال العقائد؛ فمثلا حينما ننظر في سبب اختلاف علماء الكلام في قضية الجبر والاختيار، سوف نجده يرجع إلى غياب النظرة الكلية[23] لمجموع الصفات، لأنه حينما بدأ علماء الكلام يقررون قضايا الصفات وتحليل معانيها، وبيان أبعادها النفسية والاجتماعية والسياسية، كل صفة على حدة، حينما فعلوا ذلك تشتت بهم الآراء.

ومن القدرات العقلية التي وظفها القرآن الكريم ووضع لها آليات تنميتها وتوسيعها (المخيلة)، فالخيال له من الدور المنهجي للعقل ما لا يتحقق ببقية القدرات الأخرى، إن الخيال الواقعي يجعل الإنسان في حالة من التفاعل العقلي والاندماج الوجداني مع الموضوع، فيكون ذلك أدعى إلى تمثل ما يقتضيه الخطاب الإلهي، ويتجلي ذلك في آيات الوعد والوعيد التي تضع أمام العقل صور أحداث اليوم الآخر، فتبدو ــ بفضل المخيلة ومن خلال بلاغة القرآن المتفردة ــ كوقائع يعيشها الإنسان بوجدانه ومشاعره وتتوالى صورها في مخيلته.

ومن الصيغ القرآنية التي تفعل هذه القدرة وتنميها:

1ــ القصص القرآني: فحينما يسرد القرآن القصة يعمد إلى تشخيص الأحداث ويبث في الحدث التاريخي الروح، مما يجعله ماثلا في المخيلة وكأن الإنسان في لحظة الخطاب يعيش الحدث.

2ــ إطلاق أفق الموجودات من غير تحديد ولا تعيين، مما يجعل العقل ينشط قدرة المخيلة ويحفزها محاولا السباحة في الآفاق اللامحدودة. نلاحظ ذلك في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل:8). وقال: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ**﴾ (الحاقة:38-39). وقال: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (السجدة:17)، ويعضد هذه الآية حديث الرسول ﷺ: (قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[24].

3 ــ تصوير أحداث يوم القيامة بأسلوب يجعل الإنسان يعيش أجواءها. وما يحفز أكثر قدرة المخيلة على التوقد والنشاط أن الحديث عن يوم القيامة يأتي بأسلوب الترغيب والترهيب مما يجعل الأجواء النفسية في حالة من التوتر والانفعال لتدفع المخيلة إلى استدعاء الصور وتقمصها، فتتلبس بها نفسية المؤمن. وبقدر ما

تهيمن هذه الأحوال والصور على الإنسان بقدر ما يكون أكثر تفاعلا بكل جوانحه وجوارحه مع الخطاب العقدي. ونجد القرآن أحيانا يعتمد على الخيال المحض في التصوير من غير الاعتماد على صور معهودة للإنسان كما في قوله تعالى: ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾ (الصافات:65).

سادسا. ترويض العقل على الاستدلال:

مما يلاحظ على المنهج القرآني في صياغته للعقل صياغة منهجية أنه لا يتوقف عند التأسيس والضبط وتفعيل القدرات العقلية، بل يأخذ مع ذلك كله العقل ليضعه في عمق التجربة، ثم يتركه يفكر وينظر ويحلل ويركب ويستنتج ويستنبط ليصل إلى الحقيقة بنفسه. إن القرآن لا يقرر الحكم العقدي ابتداء ــ وهذا من أسرار منهجه العجيب ــ بل يرشد العقل فيضع أمامه المنهج السليم مع المقدمات الصحيحة والمعطيات الواقعية ثم يستثيره ويستفزه بالسؤال ليتحرك بنفسه ليصل إلى النتيجة (الحكم).

إن هذا الفهم للمنهج القرآني يتوافق مع قوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (البقرة:256). فمقررات العقيدة لا يفرضها القرآن على العقل بل يوجهه وفق المنهج السليم ليصل إليها بنفسه.

استنتاج:

ومن خلال العرض السابق نخلص إلى نتيجة مهمة وأساسية وتجيبنا على الإشكال المطروح في المقدمة وهي: أن القرآن في خطابه العقدي يستهدف بناء المنهج للعقل أكثر من استهدافه لبناء القناعة أو أنه يبني المنهج من خلال بناء القناعة نفسها ويمكن أن نعزز هذا الاستنتاج بالأدلة والقرائن التالية:

1 ــ أن القرآن في محاورته للكفار والمشركين وأهل الكتاب والملحدين لا يعيب الفكر في حد ذاته بل ينتقدها من جهة افتقارها إلى الدليل.

2 ــ أن القرآن يقدم دائما مقررات العقيدة مؤسسة على المنهج والاستدلال، ولا يقرر العقائد ابتداء مجردة عن الدليل حتى في خطابه الموجه للمؤمنين، إنه يقدم الحكم العقدي في صورة منهج أي مقرون بالدليل أو مصحوب بالإرشاد إلى النظر والتفكر.

3 ــ أن القرآن لا ينهى عن الإكراه في الدين بل ينفي إمكانيته أصلا، فإذا انتفت إمكانية الإلزام بالمعتقد سيبقى المسلك المنهجي هو المدخل الوحيد للمعتقد.

الهوامش:

1ـ إذ تعتبر قضية الإنسان من المحاور الأساسية للعقيدة الإسلامية، والتي أهملت في تراث الفكر العقدي الإسلامي باستثناء بعض القضايا التي أثيرت حول مسائل القدر، وهي لم تعالج من منطلق أصالتها الفطرية بقدر ما جاءت لمعالجة قضايا سياسية واجتماعية

2ـ لذا وصف القرآن موقف قوم إبراهيم ـ بعد أن نقضوا منطق العقل وبديهيات الحس ـ بقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ**﴾ الأنبياء:65.

3ـ طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، ص58.

4ـ طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل،ص66.

5ـ الجاحظ: الحيوان،ج 2، ص 116،عن نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراء وآليات التأويل،ص54 – 55.

6ـ طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، ص76.

7ـ طه عبد الرحمن: نفس المرجع، ص 78 .

8ـ نفس المرجع، ص68 .

9ـ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج13، ص228.

10ـ الكشف عن مناهج الأدلة،ص40.

11ـ المصدر السابق، ص85ـ86، بتصرف.

12ـ مفاتيح الغيب،ج22، ص150ـ151.

13ـ النجار عبد المجيد: فقه التدين، ص99.

14ـ الطبري: جامع البيان في تفسير آي القرآن ج13، ص479.

15ـ الطبري: المصدر السابق، ج15، 71ـ 72.

16ـ المحاسبي: مائية العقل ص142.

17ـ طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، ص67 .

18ـ الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم): الإعتصام،م1، ص 47. ط . دار المعرفة.

19ـ الرازي: المصدر السابق، ج 18، ص50 .

20ـ الزمخشري: ج 3، ص108 .

21ـ لأن التحليل من غير تركيب يفقد عناصر القضية صورتها الحقيقية المرتبطة بالكلية.

22ـ د . غالب حسن: نظرية العلم في القرآن، ص115 .

23ـ عدلت عن عبارة (التركيبية) احترازا لمبدأ التوحيد في الإسلام.

24ـ صحيح البخاري: كتاب (بدء الوحي) باب (ما جاء في وصف الجنة).ط1، دار الشعب، القاهرة.1407هـ ـ 1987م.